



كان من البين منذ البدايات أن إيران وروسيا كانتا قد صممتا على منع سقوط نظام بشار الأسد، وتقديم الإسناد له في حربه المفتوحة التي أعلنها على الشعب السوري الذي اعتقد أن ما يُسمى بالعالم الحر لن يتركه وحيداً في مواجهة أكثر الأنظمة الاستبدادية بدائية ودموية، وأكثر الأحلاف خبثاً ونفاقاً.

فقد كان شعبنا الطيب يثق بالوعود التبشيرية الخاصة بقيم الديمقراطية والمساواة واحترام الإنسان كإنسان قبل أي اعتبار آخر. ولم يكن يدرى أنه في عالم المصالح لا مكان ولا اعتبار لكل ذلك. ولكننا تعلمنا من كيسنا كما يُقال، وأصبحنا على دراية تامة بأننا كنا ضحية تقاطع الصراعات، وتناقض المصالح والاستراتيجيات. وقد تأخرت القوى الإقليمية الأساسية التي أعلنت عن دعمها ومساندتها لمطالب وطلعات الشعب السوري المشروعة في التنسيق في ما بينها، وظللت كل واحدة منها تعامل بمفردها، وبناء على حساباتها المعهودة من دون أن تأخذ بعين الاعتبار الواقع الجديد، وتحدياته غير التقليدية.

فقد اختلفت القوى الإقليمية الصديقة للشعب السوري حول الأولويات في ليبيا ومصر واليمن، الأمر الذي لم يمكنها من الوصول إلى التوافق المطلوب بخصوص الوضع السوري، وهذا ما انعكس سلباً على واقع توحيد وتنظيم وتفعيل العمل المعارض بعديه السياسي والعسكري، وذلك بعد أن تمكّن النظام من فرض العسκرة على ثورة الشعب السوري، التي استمرت سلمية نقية، تجسّد أحلام السوريين والسوريات من سائر المكوّنات على مدى ثمانية أشهر أو أكثر.

وقد استطاع النظام وحلفاؤه - نتيجة وقع عدم التنسيق بين أصدقاء الشعب السوري، وبيعتات ذلك التي تمظهرت في صورة أساسية في الفوضى الميدانية - من استغلال الأخطاء، والبناء عليها، بل إدماجها مع استراتيجيةه الأساسية التي اعتمدها من بداية الثورة، وهي التي كانت تتمحور حول فكرة الربط بين الثورة السورية والإرهاب، وإظهار النظام الحليف لنظام ولاية الفقيه في إيران، ولـ «حزب الله»، في مظهر «النظام العلماني المدافع عن قيم العصر، الضامن لحقوق الأقليات وخاصة الدينية والمذهبية منها».

وعلى مدى خمسة أعوام، كان حلف النظام يراهن على إخضاع الشعب السوري من خلال استخدام كل أشكال الإرهاب بحقه.

فقد استخدم الطائرات والأسلحة الكيماوية، واعتمد أسلوب القتل الوحشي الجماعي بحق السجناء، كما اتّخذ من الاغتصاب والتجويع والحسصار سلاحاً، وأقدم على ارتكاب المجازر بحق الأطفال والنساء والشيوخ.

وحيثما تبيّن لهذا الحلف أن النظام على رغم كل ذلك يتراجع ويتهاوى، جاء التدخل الروسي، ليؤكد مجدداً أن الساحة السورية باتت ساحة تعارض المصالح والإرادات والحسابات، ولم يعد لتطبعات الشعب السوري -إن لم نقل لوجوده- أي اعتبار.

المنطقة تعيش زلزاً سياسياً عنيفاً، ستكون نتائجه كبيرة على صعيد الجغرافيا والديموغرافيا وإعادة صياغة المعادلات والكيانات الإقليمية.

نتائج آنية بدأت مظاهرها تلوح في المنطقة بأسرها، وأخرى مستقبلية تتمظهر في عقود من الصراع وعدم الاستقرار.

التعطش الإيراني للبلوغ مرتبة القوة الإقليمية العظمى هو في الذروة، وهو تعطش مبني على واقع الخلل الشمولي الذي تعاني منه دول المنطقة التي لم تتمكن من حلّ قضایاها المجتمعية، وأخفقت في طمأنة أجيالها المستقبلية. وما عزّ هذا التعطش، وأوسعهم في توحّشه غير المسبوق واقع الخلل في المعادلات الدولية بفعل سياسة اللآخر التي اعتمدها الرئيس أوباما في مواجهة قضایا المنطقة، وذلك بناء على حسابات ربما تتضح معالمها في وقت آخر، ولكن بعد أن حلّ الخراب في المنطقة، وباتت الهجرة نحو الشمال المبتغي للسود الأعظم من شعوبها.

أوضاع المنطقة في صورة عامة لا تبشر، وما يستشف من المعطيات هو أن الصراع سيستمر، بل ربما يشتد، وتتسع رقعته، هذا ما لم تتخذ القوى الإقليمية المتضررة من الاجتياح الإيراني إجراءات ملموسة لمواجهة التحديات، والآمال في هذا المجال معقدة على تحالف متين سعودي -تركي كمحور أساسي، تتمفصل حوله القوى الأخرى الفاعلة في الإقليم ومنها: قطر والإمارات وإقليم كردستان العراق والأردن والكويت. أما مصر فهي على رغم أهميتها وضرورتها تعيش محنتها نتيجة أوضاعها الداخلية الخاصة بها، ولكن لا بد من مساعدتها، وتمكينها من الخروج من مأزقها عبر حوار وطني شامل، حقيقي مسؤول بعيد عن الحلول الراديكالية الوحيدة الاتجاه.

المواجهة مع النزوع الإيراني إلى الهيمنة لن تكون سهلة، لأنه قد تمكّن من التغلغل في عمق مجتمعات المنطقة نتيجة اعتماد استراتيجية الخلط بين المذهبي والسياسي، ونجح في تجييش البسطاء عبر شعارات المقاومة والممانعة.

كما أنه قد استطاع بنهجه الزرائي الفاقع استغلال قضایا المنطقة وخاصة الفلسطينية والكردية منها. وهذا كله يستوجب وجود استراتيجية متكاملة، تكشف واقع التزييف الذي يمارسه النظام الإيراني، وتصادر على متأجرته بقضایا المنطقة من خلال طرح الحلول الواقعية لها، وتوفير الآليات الكفيلة بحلها.

الأحداث تتسرّع وتشابك. وقد جاءت الخطوة السعودية الخاصة بقطع العلاقة الدبلوماسية مع إيران، لتؤكّد وجود جدية غير عادية في مواجهة مخاطر السياسة الهوجاء التي يعتمدتها النظام الإيراني؛ وهي سياسة تهدّد المنطقة بأسرها، بما فيها إيران نفسها.

وتبقى سوريا مفتاح الحل ومقدمة الاستقرار في المنطقة، سوريا الحالية من بشار وزمورته المسؤولة عن كل هذا القتل والخراب والتهجير والمعاناة.

المصادر: